من كتاب قصور العرب :

غُمْدَان[1]

للأستاذ كاظم المظفر

يظن الكثير أن العرب في الجاهلية كانوا بدوا لم تكن لهم حضارة ولم يؤسسوا الدول والممالك ، ولم يقيموا الشرائع والأنظمة . ولكنا إذا درسنا تاريخ اليمن فقط ، نجد الأمر بخلاف ذلك ، لأن العرب في اليمن كانوا أصحاب دول منظمة ، حكومتها بيد ملوك يتمتعون بالسلطة المطلقة . لهم جيوش للتسخير وليست للتخريب، يجمعون الرجال لبناء المدن والقصور، وإنشاء السدود ، وحكومتهم وراثية لها عقود رسمية مزينة بالنقوش والصور كرأس الثور ورمز الزراعة أو صورة الهلال أو السقر ، وعلى نقودهم كتابة عربية بالخط المسند[2].

واليمن من أقدم الأقطار التي نشأت فيها الحضارة ، فلو قام علماء العاديات بالحفر في أنحاء اليمن لأطلعوا العالم على آثار تلك الحضارة . وحضارة اليمن العربية القديمة بادية في بناء أسداد الري ، وتشييد القصور ، وتأسيس القصبات والمدن ؛ ففي اليمن حضارة عربية قديمة ، وخزانة الأقوام العربية المتدفقة[3].

وكان اليمانيون طبقات ، منهم الجنود والفلاحون والصناع والتجار ؛ غير أن التجارة غلبت على البلاد لوقوعها على الطرق . وقد اشتغلوا بالزراعة لخصب تربة البلاد ؛ واشتهرت اليمن بمعادنها من الذهب والفضة والحجارة الكريمة . وهذا ما زاد في ثروة البلاد ، فأصبح أهلها أغنياء . بنوا القصور العالية ، وشيدوا المدن الكبيرة ، والقلاع العظيمة[4]... وأشهر قصورها قصر غُمدان في مدينة صنعاء . ذكر الهمداني وياقوت أن بانيه اليشرح يحصب[5] ؛ فإذا صح قولهما كان بناؤه في القرن الأول للميلاد ، وظل باقياً إلى أيام عثمان بن عفان[6] في أوائل القرن الأول للهجرة فيكون قد عاش نحو (٦٢٠) سنة[7].

وقد شاهد الهمداني بقاياه تلاً عظيماً كالجبل ؛ وقال في وصفه أنه كان عشرين سقفاً غرفاً بعضها فوق بعض أي عشرين طبقة[8] مثل أبنية العالم المتمدن وأعلاها . بين كل سقفين عشرة أذرع[9]

وفي الإكليل[10] أن محمد بن خالد رفع حديثاً إلى وهب ، فقال : لما بنى غُمدان صاحب غمدان ، وبلغ غرفته العليا أطبق سقفها برخامة واحدة شفافة ، وكان يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر به الطائر فيعرف الغراب من الحدأة وهو تحت الرخام . وكانت حروفه أربعة تماثيل أُسود من نحاس مجوفة ، رجلا الأسد في القار ، ورأسه وصدره خارجان من القصر ، وما بين فمه إلى مؤخره حركات مدبرة . فإذا هبت الريح دخلت أجوافها ، فيسمع زئير كزئير الأسد . وكان يُصبح فيها بالقناديل ، فترى من رأس عجيب[11] . وذلك حين تُسرج المصابيح في بُيوت الرخام إلى الصبح ؛ فكان القصر يلمع من ظاهره كلمع البرق . فإذا أشرف الإنسان ليلاً قال أرى بصنعاء برقاً شديداً كثيراً ، وهو لا يعلم أن ذلك من ضوء السُرُج[12] . وكانت غرفة الرأس العليا

(١) غمدان : بضم أوله وسكون ثانيه وآخره نون ، وقد صحفه الليث فقال عمدان بالعين المهملة ، ويجوز أن يكون جمع عمد مثل ذئب وذؤبان . وعمد البيء غثاؤه وليته فكان هذا القصر غثاء لما دونه من القاصير والأبنية (معجم البلدان مادة غمدان ج ٦ ص ٢٠١)

(٢) تاريخ الأمة العربية لفرويش البغدادي ص ٢٣

(٣) جغرافية بلاد العرب للسيد طه الهاشمي ص ١٠١

(٤) تاريخ الأمة العربية ص ٢٤

(٥) اليشرح . ويروى هذا الاسم بصور مختلفة . قال في تاج العروس في مادة غمد في كلامه عن بان قصره : بناه يشرخ . هكذا بالنون والخاء المعجمتين . وفي بعض النسخ بالمهملات (كذا والأصح بالمهملتين) وفي بعضها بزيادة اللام على النحتية (أي ليشرخ) . وجاء أيضاً (ذوشرح) كما في أبيات أبي الصلت التي سيأتي ذكرها . والأكثر أنه اسمه وهو يشرخ بن الملوك بن صبي بن سبأ أيمد بلقيس . والظاهر أن رواية هذا الاسم الصحيحة هي اليشرح أو ليشرح بن يحصب (راجع معجم ياقوت مادة غمدان ج ٦ ص ٢٠١ ، والعرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ١٤٥)

(٦) مروج الذهب للمسعودي ج ص ٢٦١

(٧) العرب قبل الإسلام ص ١٤٥

(٨) وفي معجم ياقوت مادة غمدان : « وبنى على سبعة سقوف بين كل سقفين منها أربعون قراحاً » وهذا أقرب إلى العقل من قوله : على عشرين سقفاً .

(٩) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ١٤٥

(١٠) ج ١ ص ٢٠ - ٢٣

(١١) عجيب : اسم جبل في اليمن قريب من صنعاء .

(١٢) كتاب البلدان للهمداني طبعة ليدن ص ٣٥

مجلس الملك اثنى عشر ذراعاً . وكان للغرفة أربعة أبواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب ؛ وعند كل باب منها تمثال من نحاس إذا هبت الريح زأر ؛ وفيها مقيل[1] من الساج والآبنوس وكان فيها ستور لها أجراس إذا ضربت الريح تلك الستور تسمع الأصوات عن بُعد .

وكان غمدان على سبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعاً ، وهذا لا يمكن ؛ لأن أربعين ذراعاً بين كل سقفين كثير ، والثبت ما ذكرناه أنه عشرون سقفاً كل سقف على عشر أذرع ، فذلك مائتا ذراع ، ولن يتعذّر لقدرتهم على كل معجز من البناء[2]. وأن أبا شرح كان ملك غمدان ، وقد بناه على سبعة أسقف كل سقف منها على أربعين ذراعاً . وكانت له أربعة أوجه فى ترابيعه : وجهٌ مبنى بحجارة بيض ، ووجه بحجارة سود ، ووجه بحجارة خضر ، ووجه بحجارة حُمر . وكان فى أعلاه غُرفة لها لجٌّ وهى الكوى . كل كوّة[3] منها بناء رخام فى مقيل من الساج والآبنوس ، وسقف الغرفة رخامة واحدة صفيحة . وقال آخر : كانت الغرفة تحت بيضة رخام من ثمانى قطع مؤلفة ؛ وذلك أحرى لأنهم كانوا يتقبون فيها السرُج فترى من رأس عجيب ، ولا ترى فيها حُمرة النار مع الرُّخامة المبسوطة ، ويؤيد ذلك قول علقمة :

مصابيح السليط يلحن فيه إذا يمسى كتوماض البروق[4]

ويقال : إن غمدان أول قصر بنى باليمن ، ووجد فيه حجر فى بعض زواياه فيه مكتوب بالخط المسند : « بناه غمدان » . وإنه البناء الذى ذكره الله عز وجل بقوله : (لا يَزَالُ بُنيانُهمُ الذى بنَوْا رِيبَةً فى قُلوبِهِمْ)[5]. فلما نزلت هذه الآية أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فروة بن مُسيك ليهدمه ، فلما أراد هدمه لم يقدر عليه ، حتى أحرقه بالنار ، ولم يهدم إلاّ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عند وفاته . لأنه لم يهدم إلا بعد أن عمل فروة بن مُسيك وقيس بن مُكشوح فى قتل الأسود بن كعب العنسى الذى ادعى النبوة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وله خبر طويل ؛ وكان فى القصر فقتل فى السنة التى توفى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم[6] وقيل هدم فى أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه[7]، فقيل له : إن كهان اليمن يزعمون أن الذى يهدمه يُقتل ؛ فأمر بإعادة بنائه ، فقيل له : لو أنفقت عليه خرج الأرض ما أعدته كما كان فتركه .. وقيل أيضاً وجد على خشبة لما خُرّب وهُدم مكتوب برصاص مصبوب : « إسلم غمدان ، هادمُكَ مقتول » فهدمه عثمان رضى الله عنه فقتل[8]. وهناك وجه آخر قال فيه ابن الكلبى : كان على كلّ ركن من أركان غمدان مكتوب « إسلم غمدان ، معاديك مقتول بسيف المنوان »[9] .

وقد اضطربت آراء المؤرخين فى بانيه ، وتشعبت أقاويلهم فى ذلك ، وذهبوا مذاهب شتى ، نذكر ما استطعنا أن نعثر عليه من أقاويلهم .

١ — سليمان بن داود عليهما السلام[10] ، وذلك أنه أمر الشياطين أن يبنوا لزوجته بلقيس أربعة قصور : غُمدان ، وصرواح ، ويذبين ، وسلحين . وكلها باليمن[11]. ومال إلى هذا القول كثير من المفسرين[12]، ولدلّ سليمان أقدم من نسب إليه بناء غمدان .

٢ — جاء فى الروض الأنف : غمدان حصن كان لمعوذة بن على ملك اليمامة[13] .

٣ — وجاء فيه أيضاً : ذكر ابن هشام أن غمدان أنشأه يعرب بن قحطان ، وأكمله بعده وائل بن سبأ بن يعرب[14] ، وكان ملكاً متوّجاً كأبيه وجده . وله ذكر فى حديث سيف ابن ذى يزن[15] .

---

(١) المقيل : ما يضجع ويوضع فيه الباب بخشبه أو الكوة بخشبها هو الذى يسميه الولدون : اللقن وهو الاطار الذى يحاط الحائط من جهاته الأربع وينزل فيه خشب الكوة أو الباب .

(٢) الاكليل ج ٨ ص ٢٣ — ٢٤

(٣) الكوة بالتشديد : فتحة فى الدار

(٤) ويناسب هذا البيت إلى أبيات أخر إلى ذى جدن الغمدانى (العرب وأطوارهم ص ١٠)

(٥) سورة التوبة آية ١١١

(١) الاكليل ج ٨ ص ٢٥

(٢) تاج العروس ج ٢ ص ٤٤٦

(٣) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٠٣

(٤) نهاية الأدب النويرى ج ١ ص ٣٧١

(٥) تاج العروس ج ٣ ص ٤٤٦

(٦) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٠٢

(٧ ، ٨) تاج العروس ج ٢ ص ٤٤٦

(٩) نهاية الأرب للنويرى ج ١ ص ٣٧١

(١٠) تاج العروس ج ٢ ص ٤٤٦

٤ — سام بن نوح[١]

٥ — بيو راسب وقد بناه على اسم الزهرة . وهذا القول ضعيف فلم يورده إلا النويرى فى نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٠

٦ — ايشرح بن الحرث (أو الحارث) بن صيفى . وقد رجح هذا القول جماعة من المؤرخين واعتمده صاحب القاموس[٢].

٧ — سيف بن ذى يزن . وقد انفرد بهذا القول الزمخشرى[٣] . وقد أخطأ فيه لأنه سبق بناؤه قبل وجوده بقرون عديدة .

وقد ذكر الهمدانى أن الذى أسس غمدان وابتدأ بناءه واحتفر بئره التى هى اليوم سقاية المسجد الجامع بصنعاء « سام بن نوح » اجتوى[٤] بعده السكنى فى أرض الشمال ، وأقبل طالعاً فى الجنوب يرتاد أطيب البلاد . حتى صار إلى الاقليم الأول ؛ فوجد اليمن أطيب مسكناً ، وارتاد اليمن فوجد حقل صنعاء أطيب ماء بعد المدة الطويلة ، فوضع مقرانه[٥]؛ وهو الخيط الذى يقدر به البنّاء ويبنى عليه بناءه إذا مدّه بموضع الأساس فى ناحية فج غمدان ، فى غربى حقل صنعاء ، فبنى الظَّير ، وهو اليوم معروف بصنعاء، فلما ارتفع بعث الله طائراً ، واختطف القرانة ، وطاربها ، فتبعه سام لينظر أين وقع ، فأقام بها إلى جنوب النعيم من سفح نقم[٦]، فوضع بها ، فلما رهقه[٧] طار بها فطرحها على حرجة[٨] غمدان ، فلما قرّت على حرث[٩] غمدان علم سام أن قد أمر بالبناء هناك ؛ فأسس غمدان[١٠]، واحتفر بئره ، وتسمى كرامة وهى : سقاء إلى اليوم ولكنها أجاج[١١] .

(يتبع) ناظم الخطر

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١

(٢) العرب وأطوارهم ج ١ ص ٩ وتاج العروس ج ٢ ص ٤٤٦

(٣) فى ص ٨١ من كتابه « الجبال والأمكنة والمياه » ط المطبعة الحيدرية بالنجف .

(٤) اجتوى البلد : كره المقام فيه وإن كان فى نعمة .

(٥) ذكر العلامة الأب انستاس مارى الكرملى أن القرآن عنى المطبار لم أجده فى كتابه ، لكن القياس لا يمنعه اسم آلة .

(٦) نقم : جبل مطل على صنعاء اليمن قرب غمدان .

(٧) أى لحقه

(٨) الحرجة : الموضع الذى ينبت شجره .

(٩) سكان غمدان يحرفون بذى حرث أيضاً .

(١٠) وفى معجم ياقوت فى مادة غمدان مثل هذه الحكاية .

(١١) الاكليل ج ٨ ص ٦

على ضريح خليل مطران

الأستاذ راجى الراعى

مسح الخلود جبينه إعظاما ... فأفاق من بين العظام وقاما

وأزاح عنه ترابه وظلامه ... وعلا يصفق بالجناح وحاما

يا من تحدرك البيان لسحره ... لم يرض غيرك سيداً وإماما

كيف استطاع الموت أن يلقى على ... عينيك من ليل التراب ظلاما

ماذا دهاك فلم يحول وجهه ... سحر البيان فنال منك مراما

ما كان يعمى السحر عما تبتغى ... أتراه أغواه الردى فتعامى

ألقى الحمام وقد مررت بداره ... ما فى يديه وصادق الأرحاما

لما أحس بمجد من أودى به ... أخلى القبور من النيام وناما

* * *

هذا هو الجبار فى أحلامه ... تخذ المجرة فى السماء مقاما

يستنزل الآيات يرسلها على ... مر الدهور أشعة وسهاما

بخياله ضم العلاء وما حوى ... وبفنه أفنى الفناء فداما

أنّى التفت رأيت من أمجاده ... علماً بنيه وماردا يتسامى

وكتيبة فى الجو وأثر كتيبة ... تعلو وتبسط باسمه الأعلاما

سل عنه رب الشعر من أعلى له ... بيت الصلاة وحطم الأصناما

جاءوه بالحجر الكريم المنتقى ... فبنى القباب وشيد الأهراما

وأتته جنات النعيم بحورها ... تشدو وفى أحضانه تتراى

خاض العباب ولم يبلل ثوبه ... وغزا الفضاء ولم يسل حساما

كم من رماد غاب فيه ضرامه ... فاستل من قلب الرماد ضراما

ما كان يحمل غير سيف لهيبه ... سيفاً يضىء محبة وسلاما

يمشى به فى موكب من روحه ... ويحيل حقد الحاقدين هياما

لا يستريح وفى المدينة بائس ... يشكو وجرحى الردى ويتامى

يبكى الوفاء به أعز رفاقه ... حفظ العهود وحقق الأنساما

لو كان يختار الوفاء رسومه ... ما اختار غير (خليله) رسما

* * *

صبت له الدنيا الكؤوس فلم يجد ... فى ما سقته من الكؤوس مداما

لم يكشف السر الدفين وعاش فى ... أيامه يستنطق الأياما

ويجاذب الشيب المصى لثامه ... والغيب يأبى أن يزيح لثاما

واليوم يسقى ما اشتهاه خياله ... فى الجنة الخضراء حيث أقاما

راجى الراعى